لماذا ينتحر الناس ؟

بحث نفسي اجتماعي

للدكتور أحمد موسى

لم يكن الانتحار معروفاً في مصر في ربع قرن ! وكان الناس على الأرجح أكثر قناعة واحتمالا ، وأرحب صدراً لمقابلة آلام الحياة وأقل تبرماً بها ! أما اليوم ولاسيما خلال العشر السنوات الأخيرة فقد بدت ظاهرة مخيفة ، هي إقدام الكثيرين على الانتحار سواء في ذلك الشبان والشابات والنساء والرجال دون فرق ظاهر بين متعلم وجاهل وبين فقير وغني وبين صحيح ومريض وبين متزوج وأعزب .

ولبيان خطورة هذا السلك ودراسة الدوافع إليه والنتائج المترتبة عليه يجدر بنا أن نلقي نظرة بسيطة على الإحصاء الدقيق المعمول في أمريكا وأوربا .

وخير ما يمكن أن يدرس هو الإحصاء الذي سجله الدكتور فردريك هوفمان أحد مديري شركات التأمين الكبرى في نيويورك ، وهو بحكم دراسته ووظيفته ومدة اشتغاله بالإحصاء أكثر من ثلاثين عاماً يُعد من الثقاة في هذا الموضوع . يقول هوفمان إن عدد المنتحرين بلغ في سنة ١٩٣٥ سبعة آلاف ، ويقرر بعد عمل المقارنة أن هذا العدد الهائل يعادل ما حصل في بحر عشر سنوات من سنة ١٨٨٩ إلى سنة ١٨٩٨ ، وهذا دليل على أن ترمومتر الانتحار آخذ في الارتفاع

ومع الاعتراف بفضل تقدم الوسائل الاقتصادية وتأمين العمال ومساعدة العاطلين مالياً وإيجاد سبل العمل لأكبر عدد منهم والتقدم العمراني العام وانتشار التعليم إلى جانب انتشار وسائل التلهية والتسلية ؛ فإن هذا كله لم يكن ليمنع ازدياد الانتحار بين الناس على غير ما كان منتظراً ومأمولا .

هذا ما وقع في أمريكا ولكنه قد لا ينطبق تمام الانطباق على ما يحدث في أوربا ، وقد يخالف ما يحصل في الشرق على وجه الخصوص .

والشيء الذي تجب ملاحظته هو أن الانتحار يكثر عادة في البلاد المتمدينة عنه في البلاد المتأخرة ، وفي العواصم والمدن الكبرى عنه في البلدان الصغيرة والقرى ، أي أن حوادث الانتحار ترتبط ارتباطاً وثيقاً بانتشار المدنية ؛ ولذلك فلا غرابة إذا وجدنا أن الانتحار غير معروف عند السود في جنوب الولايات المتحدة وفي أواسط أفريقيا . والسبب في ذلك أن مطالب الحياة في البلاد المتمدنة أكثر تنوعاً وأشد إلحاحاً منها في البلاد البعيدة النائية حيث الحياة بسيطة أقرب إلى الفطرة .

وسكان جنوب الولايات المتحدة وإن كان معظمهم من الزراع وعمال مصانع النسيج الفقراء فإنهم يعيشون في أمان من الانتحار إذ لم تزد نسبة المنتحرين عندهم عن اثنين في كل مائة ألف من السكان ، على حين قد ثبت أن هذا العدد بلغ ثمانية في كل مائة ألف في الأماكن المجاورة حيث توجد المدنية !

والإحصاء العام يدل في غير شك على أن معظم المنتحرين كانوا من بقاع النصف الشمالي للكرة الأرضية بنصفيها الغربي والشرقي حيث سارت المدنية بخطى أوسع وبسرعة أكبر ، وحيث العوامل الجوية دائمة الانقلاب والتغير والتباين ، وهو نفس الجو الباعث على النشاط والعمل والانتاج ، فكأن الشعوب التي نالت القسط الأوفى من التعليم والثقافة والتي لديها الأسس الاقتصادية ، امتازت أيضاً بزيادة عدد المنتحرين فيها .

وثبت من الاحصاء أن انتحار النساء يكون على أشده بين سن ١٥ و٤٥ والرجال بين سن ٢٥ و٦٠ ؛ إلا أن عدد المنتحرات كان دائماً أقل من عدد المنتحرين ، لأن المرأة بطبيعتها المولودة معها أكثر جلداً وصبراً واحتمالا لآلام الحياة ، وهي كأم أقل تبرماً بالقدر وأكثر تضحية بنفسها لأولادها ، فضلا عن أن مسئوليتها في الحياة أقل نسبياً من مسئولية الرجل المولود للكفاح والقوامة على المرأة ، وليس في مكنته التحرر من واجبات الزوجية أو إهمالها ، كما أن من واجباته الأولى مساعدتها على البقاء وتأدية رسالتها التي خلقت من أجلها وهي الأمومة ، ولذلك فعند ما تصادف المرأة من مرارة العيش قدراً مساوياً لما يصادفه الرجل كالآلام النفسانية أو الجسمانية أو الصدمات الحيوية العنيفة ؛ فإنها لا تفكر في الانتحار أو على الأقل لا تميل إليه بمقدار قوة ميل الرجل ، لأنها أمهر منه في إيجاد نوع من السلوى وأكثر رضوخاً للتعاليم الدينية وأميل للانحياز نحو الآمال التي قد تتحقق حيناً وتخيب أحياناً .

نعم إن هناك مشكلة التقدير لهذه المتاعب ، فقد يصيب المرأة ما يصيب الرجل ، وكلاهما يختلف عن الآخر فى التقدير .

ويمكن التأكد من صحة هذه المعالجة بالنظر إلى عدد المنتحرين فى مصر عام ١٩٢٧ مثلا ، فقد بلغ مائة وستة أشخاص بيانها :

السن من — إلى	ذكور	أناث
١٠ ١٩	١٠	١٤
٢٠ ٣٩	٤٠	١١
٤٠ ٥٩	١٤	٦
٦٠ فما فوق	٤	٥

المجموع ٦٨ ذكوراً ، ٣٦ أناثاً .

يضاف إلى ذلك اثنان انتحرا فى سن أقل من العاشرة .

ومن هذا البيان يتضح أن المرأة أقدمت على الانتحار بنسبة أكثر فى وقت كانت فيه أبعد عن الرزانة وأقرب إلى الآمال ، على حين أقدم الرجل بكثرة عند ما شعر بالمسئولية . وكذلك يلاحظ أن عدد المنتحرين قل إجمالا بعد سن الأربعين وتساوى مع الرجل بعد سن الستين . وهذا يؤيد أيضاً أن المرأة أقل اندفاعاً نحو الانتحار من الرجل ، وذلك بالنظر إلى مجموع الرجال ومجموع النساء ولا يختلف هذا عن نتائج الإحصاء فى أمريكا وأوربا .

وقد كثرت حوادث الانتحار فى العهد الأخير بين المتعلمين فى القارتين الأمريكية والأوربية ، ولاسيما بين الأفراد الذين نالوا قسطاً وافراً من المعارف ولم يكن ميسوراً لهم الانتفاع بمعارفهم سواء فى خدمة المجموع أو خدمة أنفسهم ، وكان الباب فى غالب الأحيان موصداً فى وجوههم لتفشى داء المحسوبية الوبيل الذى كان من أكبر أسباب انهيار فرنسا بجيشها الباسل ورجال العلم والعمل فيها . وإن كلمة بيتان فى سبب الانحلال الأخلاقى لأكبر دليل على ما أصاب هذا البلد العظيم من عوامل إخفاء الأكفأ والأحسن والأسمى ، ولو تعمد الناس فى بلادنا لأعرضوا جميعاً عن تشجيع المحسوبية بل لعملوا على محاربتها ، لأنها تقتل الكفاءات وتثبط العزائم وتحارب العاملين وتدفع ببعضهم إلى الانتحار مللا وضجراً ورغبة فى نهاية فيها الراحة مهما كانت مرارتها

ولوحظ أن حوادث الانتحار تكثر فى أوقات الأعياد ولاسيما الدينية منها كعيد الميلاد ورأس السنة المسيحية ، وكذلك عقب الامتحانات العامة وخصوصاً فى مصر ، والانتحار سواء بالغرق وهو أكثر ما يلجأ إليه أو بتناول السموم أو بقطع الشريان أو بالرصاص قد كثر فى عهدنا الحاضر كثرة تبعث على القلق وتحفز ذوى الهمم إلى وجوب الدرس والفحص والعناية

ودلت التجارب على أن حوادث الانتحار منتشرة فى البلدان التى يكثر فيها العاطلون من ذوى النفوس الحساسة والعقول التى تقدر المسئولية ؛ لذلك قامت الحكومات التمدينة بمحاربة البطالة بمختلف الوسائل ووفق بعضها توفيقاً هائلا إلى ماقبل الحرب الأخيرة

ومن الغريب أن معظم حوادث الانتحار أقدم عليها أفراد من الريف انتقلوا إلى المدن الكبرى والعواصم مأخوذين بسحرها وأضوائها واتساع شوارعها وسهولة العيش فيها ، فإذا ما استقر بهم الحال هبوا سعياً وراء الرزق والعمل ، ولكن سرعان ما يصطدمون بصخرتها القاسية فيفروا من ذلك السحر وهذا الجمال إلى حيث النهاية التى لا عودة بعدها .

والانتحار عمل ناشىء عن اختلال التوازن العقلى واضطراب المجموع العصبى ، فيختل تقدير الإنسان للمسئولية الأدبية والاجتماعية فيندفع إلى تلك الخاتمة الأليمة التى لو ساعدت الظروف الخارجة عن إرادته على منعه لعاد إليه صوابه وندم على ما كان شارعاً فيه

وتكاد كل حالات الانتحار تتشابه من حيث الدافع إليها ، أى أنها تسلط فكرة « التخلص » من متاعب لا نهاية لها ، سواء فى ذلك المتاعب الجسمية أو النفسية ، والجسمية مرضية معظمها ميئوس من شفائه كالسرطان والتدرن الرئوى والأمراض التناسلية ، أما النفسية فهى مع تنوعها لا تحتاج إلى إيضاح كثير ولكنها مع كل حال لا تخرج عن يأس وقنوط لإيجاد حل « معقول » لمشاكل لا حدود لها .

وكم من مرة سمعنا بعض الناس يقول « إن الحياة عندى لا تساوى مليما » أو « إنى أفضل الموت على الحياة » أو « لماذا ولدنا وكل ما فى الحياة عذاب » وهذه الكلمات لا تصدر عفواً ولا يقولها القائل تلهياً وعبثاً ؛ فواجبنا جميعاً يقضى بدرس هؤلاء الناس والعمل على تخفيف آلامهم ، ولا ننسى أن بعض هؤلاء انتحر فعلا بعد أن التمس من الحكومة الأخذ بيده ليتمكن من القيام بواجبات الأبوة لأطفال صغار .

إن مما يؤسف له حقاً أن تكون المدنية السبب الأول لهذا البلاء لأنها هى التى جرت على الناس معيشة الترف ودقة الإحساس والمبالغة فى تقدير المتاعب ، وقربتهم إلى « النعومة » فأصبحوا خائرى القوى لا يرغبون فى المقاومة بل ويستسلمون لأقل قوة ، فترى البعض يثور إذا ما أصاب مصمد العمارة التى يسكنها أى خلل مؤقت يترتب عليه بذل جهد بسيط فى الصعود إلى الطبقة الرابعة أو الخامسة ، وزاد بالناس التبرم بالحياة إلى حد

الرغبة فى إحداث « ثورة » منزلية إذا ما وجدوا ماء الحلاقة بارداً أو فاتراً أو شربوا الماء وهو فى درجة ترتفع عن الصفر !

لقد فقد الناس الجلَد وقوة الاحتمال بفضل المدنية الحديثة واختراع الآلات الميكانيكية التى تؤدى كل عمل ؛ ولذلك فلا غرابة إذا زادت نسبة المنتحرين بين الطبقة المتمتعة بمثل هذه « النعم » أو الراغبة فيها أو الساعية إليها !

ويظهر أن هناك علاقة وثيقة بين الموقع الجغرافى والجو فى بلد ما وبين عدد المنتحرين فيه . فمثلا نجد أن منطقة سان دييجو فى كليفورنيا أكثر من غيرها بالنسبة إلى عدد المنتحرين ، فقد بلغ هذا العدد ٤٦ فى كل مائة ألف ، وبعدها سان فرانسسكو ٣٨ ولوس انجلوس ٣٣ وأوكلاند ٣٠ فقط ، والتباين بين هذه المناطق ظاهر وراجع إلى اختلاف الموقع واختلاف الجو .

ولم يلاحظ أن جمال البقعة أو الوسط مما يخفف من اندفاع الناس نحو الانتحار ، فمدينة واشنطون معروفة بجمالها وبكثرة بساتينها وأنها بلد محوط بالحدائق ، ومع ذلك ازداد عدد المنتحرين فيها عن بابون فى نيوجرسى التى لا تدانيها فى جمال الطبيعة فيها ؛ فنرى فى الأخيرة أن عدد المنتحرين كان خمسة فى كل مائة ألف على حين وصل فى واشنطون ١٨ .

ويظن بعض الناس أن سكان البلدان الحارة وهم أقرب إلى الاندفاع العصبى وسرعة الغيظ والغضب لأقل الأسباب أسرع من غيرهم شروعاً فى الانتحار ، وهذا مخالف للواقع ؛ إذ أن نسبة عدد المنتحرين فى إيطاليا والبرتغال وأسبانيا ومصر أقل بكثير عن نظيرتها فى البلدان الشمالية .

وإذا عد الانتحار دليلا على الفشل فى الحياة وعلى اليأس والقنوط فإن البعض يعده أنانية ، وسواء أكان هذا أو ذاك فإن ذلك لا يمنع من درسه والعناية به ؛ لأن الدافع إليه تسلط فكرة واحدة وانحلال قوة التفكير أمامها ، وهذه الفكرة هى « التخلص » من الحياة .

ولا أصدق من موليير عندما قال فى مقطوعته Dépit amoureux أن الموت أشبه شىء بزجاجة الدواء ، يمكن لكل فرد أن يتناول منها فى وقت معين ، فمن اندفع نحوها قبل الأوان فقد اندفع بعد ما فقد عقله[1] !

أحمد موسى

(١) La mort est un remède à trouver quand on veut
Et L' on s'en doit Sevvir le plus tard que l'on peut, uoliére. 1656 A,4 Sc 1 Frosine

البحر والقمر

للأستاذ علي محمود طه

« من ذكريات مدينة » كان » بالريفيرا الفرنسية صيف عام ١٩٤٦ وقد أقمت فى خليجها الفاتن حفلة شائقة للسباحين والسباحات ظلت بها مقمرة استمرت حتى مطلع الفجر » .

تأمل الماء فيك والشجرُ ... من أين يا « كانُ » هذه الصورُ ؟
البحر والحور فيه سابحة ... رؤى بها بات يحلُمُ القمرُ !
أطنّ والضوء راقصٌ غزِلٌ ... دعاه قلب ، وشاقه بصرُ
يهمسُ فيما يراه من فتنٍ ... آلهةٌ هؤلاء أم بشرُ ؟
يقفز من لجةٍ إلى حجَرٍ ... كأنما مسَّ روحَه الضَّجرُ
مبرداً لا يريم سابحةً ... إلا ومنه بثغرها أثرُ
من كل حواء مثلما خلقت ... يعجب منها الحرير والوبر
ألقته عنها غلالة ونضَتْ ... جسما تحامى نداءه القدر
فى حانة ما علت بها عمد ... ولا استوى فى بنائها حجر
جدرانها الماء ، والسماء لها ... سقيفة ، والنسائم السُّتُرُ
خمَّارُها منشد ، وسامرُها ... حور تلوّى ، وفتية سكروا
لم تبق فى الشط منهم قدم ... قد خوَّضوا فى العباب وانتثروا
وشيَّعوا العقل حينما شربوا ... وودَّعوا القلب حيثما نظروا
والسابحاتُ الحسانُ حولهمو ... كأنهنَّ النجوم والزهرُ
يزيد سيقانهنَّ من بهج ... لون عجيب الرواء مبتكر
يضيء ورداً وخمرة وسنى ... ذوب من المغريات معتصر
تغاير الوج إذ ظللن به ... وثار من حولهن يشتجر
بهنَّ يلتفُّ مرتقٍ ويُرى ... ينشقُّ عنهن فيه مُنحدَرُ
منفتلات قدودُهنَّ كما ... ينفتل الغصن آده الثمرُ
ملوحات بأذرُعٍ عجب ... تحذرهن النهودُ والشعرُ
والضوء فوق الخصور منهمرٌ ... والماء تحت الصدور مستترُ
ما زلْنَ والبحر فى تموُّجه ... يُرْغى كما راع قائدَه خطرُ
قد جاوز الليلُ نصفَه فتى ... تؤمُّ فيه أصدافَها الدُّوَرُ
فليصخبِ البحرُ ولتئن به ... رماله ، وليثرِ الشجَرُ
ولتعصف الريحُ فوق مائجه ... ولينبجسْ من غمامه المطَرُ
أقسمتَ لا ينتحين شاطئَه ... وإن ترامى بمائه الشررُ
حتى يُرَى وهو فضةٌ ذهبٌ ... عازجَ الليل فيه والسَّحَرُ !